Abdulmalek Al-Zaum

▶ To cite this version:

Abdulmalek Al-Zaum. . , Sep 2014, ⊠Amman, Jordan. ⟨hal-01338113⟩

HAL Id: hal-01338113

https://inalco.hal.science/hal-01338113

Submitted on 3 Jul 2016

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire **HAL**, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.

الصورة النمطية وصناعتها للطوائف و الأقليات في بلاد الشام في كتب الرَّحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر

د.عبد الملك الزوم Abdulmalek ALZAUM

الكلمات المفتاحية : □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□
□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□.

ملخص

تعرضت سوريا خلال القرني الثامن والتاسع عشر لأقوى حملة فكرية شرسة صبت جام حملها على عنصر التعدد القومي والثرورة والتركيبة الفسيفسائية المعقَّدة لمكونات الشعب السوري عرقياً ومذهبياً ودينياً، وكان صدى الحملة في أوروبا مدوياً كونها الراعية لها, وظهرت هذه الحملة بنهج جديد اعتمد التمييز بين العرق الأرقى و المسيطر، والشعوب التابعة. خلافاً للحملات التقليدية التي يقودها العسكر، قاد هذه الحملة، التي اتخذت من الريشة والحبر والورق سلاحاً لها، نخبة من المفكرين و المستشرقين الفرنسيين على تراب الأرض السورية و عادوا بكنوز لا حصر لها من الصور النمطية والتراثية والثقافية التي نقلوها عن ذلك البلد، وتعمدوا نقل صورة عن بلد يحتضر، يأكل فيه القوي الضعيف في غياب تام لسلطة رشيدة توقف استقصاء الأقلية المسيحية ممثلة بالموارنة، و ألقوا باللائمة على السلطان العثماني، فكانت لهذا الصورة شعبياً وفكرياً أثر منقطع النظير وهذا ما ساق الإمبراطوريات الغربية للتدخل لوقف هذه النزاعات المختلقة والمنقولة بشكل غاب منه الحياد أمام الالتزام بالمبادئ العلمية البحتة في وقت كانت فرنسا تعيش فيه أوج عصر التنوير. ووُظفت هذه القضية ومُرِرَت بشكل أو بآخر على أنها اعتداءات على الطائفة المسيحية بشكل أساسي فشكلت نقطة البداية وذريعة للتدخل.

المقدمة

تُعد سوريا إحدى الدول الأكثر تعددية وكسموبولتية التي كتب عنها الرحالة الفرنسيين في رحلاتهم إلى الشرق. فتعدد الشرائح السكانية شّكل منذ سالف العصور اليونانية نسيجاً سكانياً متسق التعايش والاندماج و عبّر في نفس الوقت عن مدى تعدد الأديان واللغات والأعراق والثقافات. ولكن هذه التعددية السكانية والمذهبية التي نعرفها اليوم لم تكن بهذا الوميض، فعلى الرغم من قبضة الإدارة العثمانية الحديدية في القرني الثامن والتاسع عشر إلا أن النزاعات ما فتأت تتفاقم و تشتد وتيرتها. وساعدت بعض الأيادي في نزع فتيل الفتنة و هذه الأيادي لم تكن كما نتصور جيوشا و عتاداً بل كتاباً وفكراً.

لقد عبر المستشرقون عن هذه الكسموبوليتية خلال رحلاتهم إلى الشرق بعدة طرق، حيث قدموا دراسات، عدت آنذاك دقيقة الوصف، عن تلك التعددية السكانية، وكتبوا كذلك الكثير عن طرق عيشها وتعايشها، وركزت هذه الدراسات خصوصا على إبراز أوجه الاختلاف فيما بينها. فشكلت نقطة الضعف التي سمحت بزرع أول بذور الخلاف. وكان لهذه الدراسات أهداف تعود إلى الماضي، وليس كما روج له رواد تلك الحقبة من أهداف علمية بحتة، بل ساقت هذه الدراسات فكرا وايديلوجيةَ يتدرج منها دعوة للتمعن في دراسة مفاتيح و مكونات هذا المجتمع للتمكن منه.

قبل الدخول في ثنايا هذه المسألة دعونا نلقي نظرة على جغرافيا هذه المقاطعة العثمانية في القرن التاسع عشر. فقد مرت حدود سوريا طيلة القرون المتوالية بمراحل حتى باتت بما يعرف بسورية اليوم، لكن هذا القطر لم يكن بهيئته ولا مساحته التي نعرفها اليوم، بل كان يشمل بما يعرف اليوم بفلسطين ولبنان و بجميع أراضيها المنهوبة. فسوريا القرن التاسع عشر كما عرفها جغرافياً دولامارتين : « □□□□ □□□ □□□ □□□□ □□□□□□ □□□□ (□□□□□) □□□□ □□□ □□□□□ □□□□ □ □□□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□ □□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□ □□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□ □□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□

في هذه المادة العلمية، سنناقش عدة نقاط وعلى رأسها دور المستشرقين في تنميط الصورة عن الأقليات والطوائف السورية و التركيز على جانب الاختلاف و الفرقة. علوا على ذلك تُبرز هذه الدراسة المقتضبة الحجة التي استعان بها الرحالة في تسويق قضية القمع الطائفي لاسيما استقصاد الطائفة المسيحية والتي شكلت بحد عينها ذريعة المستعمر للدخول شيئا فشيئا إلى سوريا حتي يتمكن من إحكام قبضته. ثم تركز الدراسة على أهمية ظاهرة الاستشراق في خدمة المشروع الاستعماري و دور الحملات العلمية في تهيئة المناخ المناسب لوضع ثغرة الخلاف بين الأقليات والطوائف. ثم سنعرض سريعاً أهمية دراسات المستشرقين و الرحالة الفرنسيين كونها تمهيدا للغزو، فالصورة النمطية جسَّدت الصراعات الداخلية بشكل مبالغ فيه، مما ساعد في نشوب نارها، فمثلت حجر الأساس لمشروع استعادة الأرض. وسوف نقدم عينة من الرحلات التي ظل صداها في المدى العلمي والثقافي راسخاً حتي يومنا هذا، والتي من خلالها سنبرز أهمية تسويق الصورة الإعلامية في تهيئة المناخ المناسب لإشعال فتيل الفتنة بين الأقليات في خدمة الإمبراطوريات الأوروبية.

المشروع الفكري

لقد تبلور المشروع الفرنسي في الشرق في عدة محاور منها ما رصده سعيد في كتابه □□□□□□□□□□ ومنها ما لم يأتي على ذكرها ولقد صب جل اهتمام سعيد على العلاقة التي ربطت الشرق بالغرب وهي علاقة مُهيمِن و مُهيمَن عليه، وكان أهم ما ذكره سعيد في كتابه هي الحملة الفرنسية على مصر تحت قيادة نابليون بونابَارت سنة ١٧٩٨. لقد شكلت رحلة فلوني إلى مصر وسورية منعطفاً كبيراً في تاريخ هذين البلدين. فعند عودته من رحلته التي أمضى فيها قرابة العامين في مصر و سوريا، توجه إلى جزيرة كورسيكا ليقابل صديقه نابليون الذي كان حائراً في وضع خطة لحملته إلى مصر. قدم فولني لبونابارت هدية ثمينة من ورق وحبر، ألا وهي كتابه الشهير " □□□□ □□□ □□□ □□□ □□□□□□□"، وتشيد الكاتبة رشيدة الديواني في كتابها " □□□ □□□□□□ □□□□□□□" بمهارة الرحالة فولني : « □□□ □□□ □□□□ □□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□ □□□□ □□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□ □□ □□□»، و أضافت أن نابليون الذي كان متردداً في بدء حملته، أخذ بمحمل الجد النصائح التي قدمها له صديقه ومستشاره فولني. ولقد سدد سعيد لهذه الحادثة نقداً لاذعاً و للخطاب العلمي الذي تحول إلى مؤسسة عسكرية يقودها الجنرالات ويصطحبها العلماء.

شكَّل الخطاب الديني الوعاء الذي تشرب منه طموحات المستعمر، ولكن في عصور ما قبل الاستعمار أُستبدِل الموروث الديني الدفين بمشروع توسعي حضاري يتخذ من المساواة والحفاظ على الأقليات شعاراً له, وسوَّق هذه الشعارات لكي يفرض هيمنته، وهذا ما قامت به بريطانيا قولاً وفعلاً ولحقت بها فرنسا. إلا أن لفرنسا مآرب أخرى لم تفصح عنها علناً، وتتجسد في ذلك الموروث الثقافي و الديني التوسعي "□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□" التي رسم خارطتها قساوسة الكنسية وكبار علماء الدين و اصطفت وراءها القوة العسكرية. لهذا رأينا غلو في وصف الرحالة للأرضي المقدسة، و لهذا عند قراءتنا للرحلات يظهر للعيان أن زيارتهم تكرست للأماكن التي استولى عليها الصليبيون في حروبهم.

تمكن العديد من الرحالة من تخطي حاجز الخوف و السفر إلى الشرق, إثر المعاهدات[5] التي تم التوصل إليها بين السلطات العثمانية وإمبراطوريات أوروبا في تلك العصور وعلى قائمتها الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية اللتين وقعتا اتفاقيات مع السلطان[6] سليمان القانوني بين العام ١٥٦٩ والعالم ١٨٨٠ و نصَّت على إقامة قنصليات أوروبية تسهل من مرور القافلات التجارية الاوروبية عبر أراضي السلطنة الأراضي العثمانية.

ولكن هذا التحالف الذي نُعت بـ « □□□ □□□□□ □□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□ □□□□ □□□ □□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□□» سرعان ما أزاح الستار عن وجه فرنسا الإيديولوجي حيث سارعت هذه الأخيرة بإرسال علماءها و وموفديها إلى الشرق. حرصت هذه النخب من العلماء على ابقاء الصورة العامة لتواجدها متسقةً مع بنود المعاهدة ولكن في الواقع قامت بدراسات عميقة لواقع الشرق الأوسط وحرصت على نقل علومها إلى حكوماتها. وهكذا تحولت البعثات من تجارية إلى علمية وثقافيه وأصبح البحث عن التراث و المخطوطات مدرجا على لائحة أولويات البعثات. و لقد تطرق لدور هذه البعثات الدكتور محمد درويش في كتابه " □□□□□□□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□ □□□□□□□"، والذى تعرض من خلاله لأهمية الحركة العلمية: « □□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□ □□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□ □□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□ □□□□ □□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□ □□□□□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□ □□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□ □□□...».[7]

واكبت هذه الحملات ظهور أول مدرسة للغات وحضارات الشرق وسميت بمدرسة الشبان للغات و قد تخرج منها مجموعة من « المستعربين» وهم من عُرفوا بعدئذ بالمستشرقين. كانت تلك هي الخطوة التي رسمت بداية الاستشراق. ويضيف الدكتور درويش في هذا السياق : « □□ □□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□»[8] ومثالاً على ذلك : « □□□ □□□□□□□ □□□□□ □ □□□□□□□ □□□□□□□ □□ " □□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□" ».

وعند اقترابنا أكثر من كتب الرحالة نلاحظ أن حدود سورية قد تبدلت مراراً في كتبهم كما على الواقع ايضاً. وهذه المؤلفات قد شهدت بشكل أو بأخر بانتماء هذه القطعة من اليابسة إلى عروبيتها ولكنها في الوقت ذاته تطالب باسترداد هويتها المسيحية، فهذا هو ما يُستنبط أو يُقرأ على الاقل من خلال كتبهم. وقد عبَّر عن ذلك دولامارتين بأكثر من مناسبة أثناء رحلته في سوريا، فجاء على سيرة تاريخ مسجد الأمويين في دمشق الذي يحوي ضريح صلاح الدين الأيوبي مؤكداً أطروحة أسلافه شاتوبريون

---

[5] Robert, A. Kann, *A History of the Habsburg Empire, 1526-1918,* University of California Presse, 1980

[6] Roger, Bigelow, *Suleiman the Magnificent*, Red Books, 2007.

[7] أحمد درويش□ □□□□□□□□□□□□□□□□

وفولني بهوية المسجد المسيحية وأوضح أن مسجد الأمويين قد شُيد على أشلاء كنسية سان جوزف الدمشقي الذي كان السَّباق في تشييد هذه الكنسية العتيقة وأن ما نراه اليوم لا يخلى من الآثار الدالة على هويته وما نراه سوى نتيجة التعديلات والإصلاحات التي قام بها الخليفة الوليد سنة ٧٠٥. أما البير فيليب الذي دخل المسجد خلسة «□□□□ □□ □□□□□□□□□□» حسب ظنه، فلم يرى فيه إلا « □□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□ □□□□ □□□□ □□□ □□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□»[9]. حاملون معهم هذا الشعار، عبّر الرحالة الفرنسيون عن حنينهم إلى عودة هذا التراث المسيحي إلى أصحاب الحق.

المدرسة الفكرية للهدم و البناء

بعد أن تم تأسيس أول مدرسة للغات وحضارات الشرق لمع في هذا الميدان مجموعة من الرّحالة الذين حملوا شعارات استرداد الأراضي المقدسة و كان من أهم الذين ركزنا عليهم في هذه الدراسة فولني ودولامارتين و هنري جي و بوجولا وبعض من المستشرقين.

تقول الكاتبة فاليري بيرتي، المتخصصة في أدب الرحلات، في كتابها " □□□□□ □□□□□□□□" إن فولني سعى لأن يكون كتابه وسيلة إقناع للقرّاء وأنه أراده « □□□□ □□□ □□□□ □□□□ □□□□□□ □□□□□□»[10]، وقد تطلع بهذه الرؤية كشف حقائق عن الشرق الاوسط لم تكشف بعد, فتفرَّد بأسلوبه ذا الطابع الفلسفي والانثربولجي, وهذا ما قاله هو بذاته : « □□□ □□□ □□ □□□□□□ □□ □□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□□ □□□□□ »[11]. بينما قدم شاتوبريون رحلته " □□□□□□ □□ □□□□□ □□□ □□□□□" على أنها أدبيه وقد وصفها جون كلود بيرشة[12] في واجهة كتابه "□□□□ □□□ □□□□□ □□ □□□□□ □□□□□□ □□□" على أنها قصة : « □□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□ □□□□»، في حين وصفها شاتوبريون نفسه على أنها تأتي تناغما مع نوعٍ أدبي ألا وهو الصحيفة أو المذكرة الشخصية. في حين يؤكد إدوارد سعيد أنه كشف عن أفكاره و عن شخصيته وآماله خلال رحلته إلى الشرق فقد أبدى عداوة واضحة للإسلام والشرق برمته.

لقد صب جل اهتمام الرحالة على دراسة مكونات الشعب السوري لحظة دخولهم, وقد قدم الرحالة فولني، الذي وصفه ادوارد سعيد على أنه : « □□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□ □□□□□□□□□□ □□□ □□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□ □□□□ □□□□□□□□□□

[9] Le comte d'Orléans, le comte de Paris, Louis Albert Philippe. *Damas et le Liban, Extrait du journal d'un voyage en Syrie au printemps de 1860*. Londres : édition, W. Jeffs, 1861, p. 16.
[10] Berty, Valéry, *Littérature et Voyage*, Ed. L'Harmattan, Paris, p. 70
[11] Volney, *Voyage en Syrie et en Egypte,* préface, vol 1, Ed. Bossonge Frères, Paris. 1822
[12] J.-C. Berchet, *Le voyage en Orient Anthologie des voyageurs français dans le Levant au XIXe siècle*, introduction, chronologie, notices biographiques et index de J.-C. Berchet, Paris , éd., Robert Laffont, 1985, p.19

□□□ □□□□□ □ □□□ □□□ □□□□" □□□□□□□□ □□□□□□□□□□ »[13]، قدم في كتابه "□□□□□ □□□□□" دراسة عن الشعبين المصري والسوري، ولكن معظم الدراسة تركزت على الطوائف والأقليات السورية كما جاء فيها.

بعد أن ايقنت فرنسا بعدم جدوى التغلغل الى هذه الارض من اليابسة بالطرق التقليدية السائدة في ذلك العصر، ألا وهي الحرب، التفت إذاً على هذه الشعوب وقامت بدراستها لعلها تحظى بالنيل مما يؤرقها. لم تسطع بداية الحصول على مرادها ولكن الشعوب العربية ذاتها من جهة و غياب السلطان في المنطقة العربية من جهة أخرى هيئا المناخ المناسب حتى تمكنت أخيراً من الوصول إلى العمق الجغرافي والسكاني وحصدت ما زرعه لها مستشرقوها.

العنصر الأساسي في الصورة النمطية

شكلت الصورة النمطية التي بنى عليها مستشرقي القرنين الثامن والتاسع عشر عن الشرق الأوسط جل آمالهم, شكلت الأداة والوسيلة الفعالة, وغذت من جهة أخرى كتب المستشرقين الجدد بشكل أساسي في عملية صناعة الصورة الحديثة للشرق الأوسط وكانت الملهم والمعين على ذلك. وعلى الرغم من قلة الإمكانيات وبساطة الوسائل فقد حقق المستشرقون علمياً وعملياً الكثير من التقدم حتى أن سعيد يرى أنهم تفوقوا على مستشرقي العصر الحديث, فلولا تلك المادة الخام (الصورة النمطية) لما تمكنوا من الوصول إلى تلك النتائج بتلك الوسائط البدائية التي أبدت فعالية منقطعة النظير. ومع هذا نقول إن كلاً من الوسائط القديمة والحديثة تنتميان إلى حقل الكلمة والمعلومة، الذي أثبت أنه أقوى الأسلحة, فقد آتت أوكلها في السابق، فلما لا ونحن نعيش اليوم أوج عصر المعلومة. لقد أخذت الوسائط التقليدية شكل الكتاب والمقال والقصص أو الرسالة الموجهة للحاكم والقارئ ولكل مهتم بشأن الشرق. عملت هذه الكوكبة من المثقفين والمستشرقين، بل وعمدت على نقل صورة قد لا تكون بتلك الألوان التي تبدو عليها في الواقع، و خرج البعض منهم عن الطابع الأدبي ومال إلى الطابع العلمي، وكلاهما خدما غايةً غابت كثيراً في ذلك العصر عن أعيُن مثقفي العرب و العثمانيين والتي تمثلت في نقل صورة عن شرق أوسط متجزأ يعيش أزمات متعددة و نزاعات طائفية واضطهاد لبعض الأقليات لا سيما المسيحية التي حسب زعمهم، كانت تعاني الأمرين، وأن الشرق المسيحي قد طُمِست هويته من الجزء المسلم بأفظع الوسائل عن طريق استيلاءه على أهم المقدسات المسيحية و تغليف هويتها بالشعارات الدينية والكراهية و تهجير المسيحيين و الاعتداء عليهم. فكان لهذه الصورة صدى في الداخل الشعبي، الذي استهوته ألوان تلك الصورة وثار لأشباهه من المسيحيين. نبع عن هذه الخطوة الفكرية العلمية والإعلامية حراكاً في الأوساط الفكرية والثقافية والدينية، التي بدورها لعبت دوراً توعوياً أثَّر على الرأي العام و دفع حثيثاً نحو فكرة التحرك العسكري والسياسي لوقف هذا العدوان. و تبلورت هذه العملية في نقل أحداث عاشها مسيحيو الشرق بشكلٍ مفجع كأحداث ١٨٦٠ التي سنعود لها لاحقاً. إن صناعة الصورة النمطية ليست إذاً بحديثة العهد بل تستمد جذورها إلى ما قبل القرن الثامن عشر، ولقد اثبتت مدى فعاليتها على مدى القرون المنصرمة إذ نجعت وأعطتْ خيرها منذ استطاع المستعمر فهم سر اتحاد الشعوب وصنع عقارا للتفرقة ودسه بينها.

[13]Said, Edward, *L'Orientalisme*, Ed. du Seuil, Paris, 2003, p. 99

لطالما شجب الرحالة في كتبهم تطرف السوريين وعزوه إلى تآمر السلطات العثمانية مع بعض المجموعات المتطرفة في الحين الذي كان المد الوهابي ينشط في شبه الجزيرة. وخلافاً لفولني ودوفوجية وشاتوربريون إعتبر دولامارتين هذه الحركة تصحيحية تحاكي العقل والروح، ولكنها لم تلقى صدى إيجابيا لدى الحكومة العثمانية. بينما نعت فولني الحركة الوهابية بأشد العبارات ونقد فيها الكراهية التي يكنها الوهابيين ومن يتبعهم في سوريا للمسيحيين قائلاً : « □□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□

□□□□□ □□□□□□□□[16] □□□□□ □□□□□□ □□□ □□□□□ □□□□□□ □□□□□□□
□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□ □□ □□□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □
□□□□□□»، وفي هذه الصورة التي يرصدها لنا فولني يظهر المسيحيون بالضحية، في حين يظهر العرب فيها بالوحشيين البربر. ولكن هل لنا حقاً أن نتوقف فقط عند تلك الصورة المنقولة ووصفها بصورة نمطية لا تطابق الواقع بشيء، أم أن تلك الصورة حاكت واقعاً حقيقا لم يكن في حسبان المفكرين العرب؟ ألا يجب أن نتوقف عن شيطنة الغرب و تحميلهم كل المسؤولية و نلتفت إلى تلك النزاعات بعين من الواقعية؟ أم أن العرب عاشوا دائماً بوفاق مع الأقليات الأخرى؟

لا يختلف اثنان في حقيقة النزاعات المحلية والتقلبات السياسية التي عاشتها سوريا في القرن التاسع عشر وسجلها التاريخ، ولكن ماغاب عن الأذهان هو مدى تطورها حتى صارت مرمى للمتدخلين، فهي بهذا تكون قد خدمت أهداف الاستشراق ومن يقف وراءه بشكل أو بأخر. لم تكن من خيال الرحالة إذاً بل حقيقة رصدها الرحالة في كتبهم كنتاج لتجارب عاشوها أو تناقولها فيما بينهم وهي تعبر عن مدى الصراع الديني والطائفي الذي كانت تعيشه سوريا آنذاك قبل وصولهم. ولكن ألم يقم الرحالة الفرنسيون بنقل صورة مبالغ فيها؟ ألم يتعمدوا ذلك؟ ألم تشكل الطائفة المسيحية في سوريا وغيرها الحلقة الأضعف في الصورة بمجملها وخدمت بشكل غير مباشر هذه الحملة الإعلامية الشرسة التي تعرضت لها سوريا وغيرها من البلدان الأخرى؟

التصنيف العرقي والمذهبي لسوريا في كتب المستشرقين

بعد أن مكث في سوريا لمدة تقارب السنة والنصف كرس فيها وقته وجهده لدراسة النسيج المجتمعي السوري قام فولني بتصنيف الشعب السوري الى عدة فئات فقال :

« □□□□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□ :

□□ □□□□□□ □□□□ □□□□ □□□ □□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□

□□□□□□

□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□

□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□□»

ولم يتوقف هذا التصورعلى هذه الفرضية التاريخية، بل جاء بتصنيف فئوي أخر أكثر منه تجزءة ودقة و فيه يقوم بتفصيل كل مكون اجتماعي على حده ويدرس فيه تاريخه و مكان تواجده ودوره إلخ. وفي هذا الإطار يتناول الرحالة في دراسته المكون الأول وهي الطائفة المسيحية في سوريا :

« □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□ □□□□□□ :

□ □□□□□□□□□ □□ □□□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□ □□□ □□□

□□□□□□□□□□□□□ □□ □□□□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□

□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□□

[16] Volney, op.cit., p. 341.

□ □□□□□□□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□ »[17]

ثم يتناول المكون الثاني حسب زعمه وهم العرب، حيث يصنفهم إلى سلالتين :

«□ □□□□ □□□□□ □□□□□ □□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□

□□□□□□ □□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□

□ □□□□□ □□□□□□□□ □□ □□□□□ □□□ (على ابن ابي طالب ابن عم الرسول صلَّ الله عليه وآله وسلم) □□□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □ □□□□□ □ □□□□□ ». وهاتان السلالتان هما في واقع الأمر السنة والشيعة. وبالنسبة للمكونين الثالث والرا بع فهم :

«□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□ □□□□□ □□ □□□□□ □□□□ □□□□□□□

□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□ □□□□ □□□ □□□□□□□□□□ □□ □□ □□□□□»

ثم يأتي على ذكر البدو الرحل وهم بالنسبة إلية جزء لا يتجزأ من العرب، ويتحدث عن فصائل أخرى يعتبرها كفصائل تنحدر من اصول عربية كالتركمان والاكراد.

جاء هذا التصنيف الذي قد لا يعكس تماماً واقع المنطقة الحالية اليوم كما قد تبدو لنا بهدف إثراء نظرية التعدد العرقي والإثني لسوريا، إلا أنه قد استطاع بتلك الرؤية المنهجية عكس تركيبة المجتمع السوري عموماً. ولفهم تلك الرؤية المنهجية سنتوقف قليلاً على أهم جوانبها, حيث قسم فولني السوريين حسب الجغرافيا السكانية إلى : البدو والفلاحين و الحضر. لم ينحصر هذا التصور على هذه الاصول الثلاثة بل استعان المؤلف بدراسات سبقته في هذا التصنيف كموسوعة العالمين العلمية التي كانت تنشر بشكل دوري وهي موسوعة علمية سياسية تعنى بدراسة جغرفيا الشعوب وتصدر في فرنسا. وعلى هذا النحو تصور فولني فسيفسائية السكان السوريين كالشكل الموضح أدناه :

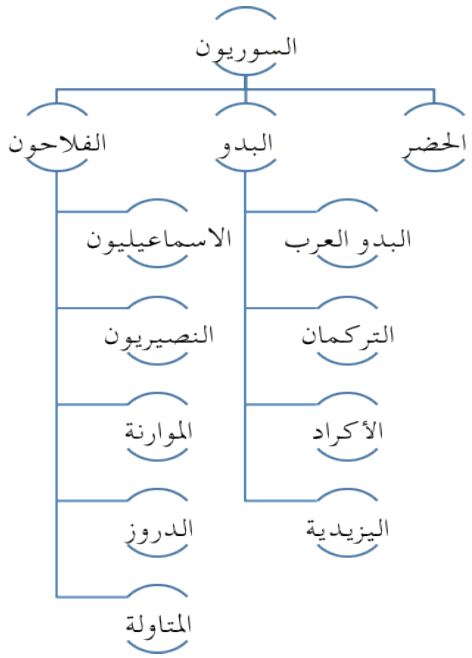

[17] Volney, op.cit., t.1, p.334.

انطلاقاً من هذا الصورة، سنتوقف قليلاً عند أهم الخصائص التي سجلها المستشرقون الفرنسيون عن كل طائفة كما جاء في مؤلفاتهم.

أولاً : العرب البدو

يبدو أن بوجولا أمضى وقتا أكثر عند البدو العرب من غيره من الرحالة، فقد تناول في مذكراته ورسائلة مسائل عديدة عن العرب البدو، وعرض تحليلاً دقيقاً عنهم ولكن دراسته لم تكن سوى قراءة لسلفه الرحالة السويسري جوهان لويس بوركهاردت والمسمى ايضاً الشيخ إبراهيم الذي مكث في صحراء العرب لبضع سنين، كما عانق اسلوبه الأسلوب الصحفي لمعلمه المستشرق الكبير ميشو. في هذه الدراسة يقول الرحالة الفرنسي إن البدو لا يشكلون عصبة واحدة فبدو سوريا ينحدرون من أصول «شمالية» و بدو صحراء العرب ينتمون إلى الفخذ العنزي وهم سكان نجد وما حادها من قبائل. ولفولني نظرة اخرى للتركيبة الاجتماعية والعرقية للبدو، فيقول : « □□□ □□□□□ □□ □□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□ □ □□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□ □□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□»، ويشيد الرحالة الفرنسي بعظمة لغة البدو وصفاء جذورهم التي لم تختلط بشعوب آخرى :« □□□ □□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□ □□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□» وينسبهم الى القبائل التي هاجرت من اليمن والحجاز, ولكنه يغالي في وصفهم بقطاع الطرق ويسرد على عجالة اسباب الحروب التي عصفت بالقبائل العربية ويعزو أهمها إلى الثأر أو على مصادر المياه و الارض الخصبة [18] وعن ديانتهم فيتفق الرحالة على أنهم مسلمون بالفطرة عدا فولني الذي يرى في اسلامهم نفاق واضح : « □□□□□□□□ □□□□□ □□□□ □□ □□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□□□□□□ □□□□ □□□ □□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□ »

ثانياً : التركمان

عند وصول فولني لحلب قدّر عددهم آنذاك بثلاثين الف نسمة مضيفا أن أصولهم ترجع الى التتار الذين سكنوا السهول الأرمنية وأنهم يتكلمون التركية بدلاً عن العربية. أما بالنسبة لطريقة عيشهم فيرى فولني أنهم أقرب ما يكون للعرب أو البدو الرُّحل.

[18] Volney, op.cit., p. 350

ثالثاً : الأكراد

خلال رحلته المشهورة عام ١٨٣٢ إلى جبال سوريا، التقى دو لامارتين بعدد من قبائلهم ووصفهم بأنهم ليسوا برُّحل وإنما اتخذوا من هذه الجبال مقراً لهم. تتجلى الصورة النمطية لهذه الأقلية عند انتقاء مفردات الوصف التي وظفها الشاعر دولامارتين في تقريب صورة الاكراد عند المجتمع الأوروبي وهذا عندما شبههم بغجر أوربا الشرقية الذين اتخذوا من سهول فرنسا واسبانيا ملاذاً لهم : « □□□□ □□□ □□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□»، وعبر عن هذا كله باستخدام مفردة " بويمنان" اي الغجر.

بدا دولا مارتين مهتما لشأنهم ووصف مساكنهم و عادتهم التي نعتها بالكرم والشجاعة وقارنها بصفات بدو الجزيرة. أما عن وجه الاختلاف بينهم وبين قرائنهم من الامم المجاورة، فقد لاحظ دولامارتين أن هيئتهم تختلف عن غيرهم من الشعوب فرجالهم « □□ □□□□ □□□□ □ □□□□□□□»، وعن نساءهم يقول : « □□ □□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□ □□□ □□□□□□ □□ □□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□

يتفق العديد من الرحالة و على وجه الخصوص فولني ودولامارتين على أن الدروز يتميزون عن غيرهم من الأقليات بأنهم شعب ذو سلطة وهوية مستقلتان ولغتهم لا تختلف عن لغة الموارنة كثيراً وهي تنبع من نفس المنبع السومري. وفي شأن مماثل يصور دولامارتين الدروز على أنهم من :« □□□ □□□□□ □□ □□□□□ □□ □□□□ □□□□□ □□ □□□□ □□ □□□□ □□□□□□□ □□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□□ □□□ □□ □□□□□□ □□□ □□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□ □□ □□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□□□□ □□ □□□□□□ □□ □□□□□□□□□

يقول بارس موريس الذي زارهم في قرية حمام الوصل إنهم استولوا على قصور الحشاشين التي تنازعوها مع الإسماعيليين، ويعتقد أن مؤسس هذه الطائفة يدعى حسن العسكري، وعلى الصعيد الديني لا يرى باريس أن عقيدتهم لها أصول اسلامية وذلك في عبارة نعتهم بها يقول فيها إن :« □□□□

قراطيين، ولكنهم مازالوا متمسكين بالنظام الاقطاعي الأوروبي الذي عرفه الأوروبيون في العصور الوسطى. وقد لاحظ فولني أنهم ما يزالون يتكلمون اللغة السيريانية القديمة. و يمكن التعرف عليهم بسهوله, يضيف أخر, فلهم اشكالاً أوروبية مميزة :« □□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□ □□□□□□ □ □□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□

تحطمت عند اسوار هذه الأرض آماله وآفاقه على يد القائد المسلم صلاح الدين. لكنه بات اليوم من السهل طرح وجهة نظر مغايرة لتلك التي سوقها الأولون في أوروبا.

شكل آخر من التمييز

لم تتوقف دراسات الرحالة الفرنسين للطوائف السورية عند تحديد العرق أو تمييز الدين أو حتى اللغة بل ذهبت لشكلٍ جديد من التمييز و هي المظاهر الخارجية كالأزياء الشعبية والهيئة الجسدية والتقاليد العرفية لكل مكونات النسيج الديموغرافي السوري، فقد لعب هذا العنصر دوراً هاماً في إعداد خارطة التمييز الطائفي والتصنيف المذهبي في بلاد الشام. فعلى سبيل المثال لا الحصر، شدّد دو لامارتين على مسألة الهيئة والخلق عند الموارنة الذين تختلف حسب وصفه ألوانهم و هيئتهم عن غيرهم من الفصائل مشبهاً لهم بالأوروبيين : « □□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□ □□□ □□□□□□□ »[27] وهذا الوصف يعقبه آخر خص به البدو هذه المرة حيث كانت نظرته مختلفة في هذه الزاوية فيبدو : « □□□□□ □□□□□□ □ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□ □□□□□□□□ »، يرمي هذا التضاد و المقاربة في حقيقة الأمر إلى إبراز وجه الاختلاف بين تلك الشعوب، فكونه يصف أحدهم بالأوروبي والآخر بالغجري الشرس، يرسل بعبارة سهلة الالتقاط إلى ذهن القارئ تُظهر مدى عمق الاختلاف، فهذه الصورة توحي أصلاً إلى أعراق و أصول هذه الفصائل، حيث يضع نصب أعين متابعيه صورتان شتان ما بينهما. يعمد الرحالة غالباً إلى تقديم هكذا صور عمن هم لا يشبهوه ولا يؤمنون بما آمن به. لم يكن دولامارتين وحده في هذا الميدان فقد تعرض الكثير من الرحالة إلى هذا العامل وجعلوه في متناول أيدي القراء وهذا لما له من أهمية تمييزية تحاكي ذهن القارئ، فبات الزي شكلا من أشكال التمييز والانتماء إلى الدين أو الطائفة أو العرق. وعلى هذا السياق تتوارى الصور النمطية التي تبرز ألوانها مدى الاختلاف لكل فصيل اجتماعي وديني وقبلي. فتوقفت عينا موريس باريس على لون وشكل النصيرين الذين « □□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□□□ (مقاطعة فرنسية) □□□□□ »[28]. هذه الصورة بحد ذاتها تمييز عنصري فتشبيهه لهم بالفرنسيين يدعو القارئ لتصديق فرضية الرحالة السويسري جوهان لويس بوركهاردت والتي أعتقد فيها بانحدار سكان هذه المناطق من أصول أندوأوروبية، ويدعوهم بشكل أو بأخر لإتباع المثل الأوروبي الذي ينحدرون منه و ترك كل ما له صلة تربطهم بالثقافة والدين الشرقيين.

حمل هذا التمييز في باطنه غاية لم يخفيها الرحالة في كتبهم بل تناقلوها من جيل إلى آخر وترك هذا التمييز آثراً في نفوسهم على أكثر من صعيد : ففي ظاهر هذه الصورة يبدو هذا انعكاساً ووصفاً موضوعياً ليس أكثر وفي باطنها تخفي رسالة تبشيرية ودعوة لهذه الشعوب للابتعاد عن ثقافتهم والعودة إذا صح القول لأصولهم الأوروبية. فهنالك من يشبههم ويعتقد بمعتقداتهم ويسلم بأن المسيحية في الشرق الأوسط ليست بعيدة في واقع الأمر عن المسيحية الأوروبية شكلاً ومضموناً.

الاستشراق معرفة أم استعمار؟

[27] Lamartine, op.cit., t. 1, p. 543.
[28] Barrès, op.cit., t.1, p. 235.

كان الصراع القائم بين الغرب والشرق على الهيمنة موضوعاً تدارسه دافيد فانسون في كتاب له بعنوان " □□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□" والذي رأى فيه أن الصورة التي عمد الرحالة لتسويقها في كتبهم نابعة من نظرة استعلاء عرق بشري على آخر، وأن هذا الصراع يمتد إلى عصور قديمة وليس وليد اللحظة : «□□ □□□□□□ □□□□□□□□□ □□□ □□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□ □□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□ □□□ □□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □

: « □□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□ □□ □□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□ □□
□□□□□□□□ □□□□□□□□»، و يقدم الدكتور فاروق فوزي بعض دوافع الاستشراق على النحو الذي ساقته الطائفة الأولى ويذكر منها الدافع الديني التبشيري و الدافع الاستعماري و الدافع العملي.

وما يشد انتباه القارئ هو ارتكاز الغالبية من منتسبي هذه الطائفة من المفكرين العرب على محور الدافع الديني و طرحه كذريعة التدخل حتى بات سائدا اليوم في معظم الدراسات المختصة وغير المختصة في شأن الاستشراق والاستعمار أن الكنيسة الغربية استعملت شقيقتها الشرقية في تحقيق مآربها.

إن الربط الذي قام به الدكتور الفيومي في عنوان كتابه بين الاستشراق والاستعمار يدعو للتساؤل عن كيفية تبشير الاستشراق بحلول الاستعمار أو في قول أخر ما مدى ضلوع المستشرقين في تحضير الاستعمار. بالنسبة لإدوارد سعيد فلا ريبة بأن الاستشراق كان اداة الاستعمار الخفية، وهكذا يطلق على كتابه اسم □□□□□□□□□□□ □ □□□□□ □□□□□ □□□□□، ويعتقد أن معرفة الشرق شكلت تمهيدا للاستعمار: « □□□ □□□□ □□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□ □□□ □□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □ □□□□□□□□ □□□□□□»[33],

ويرمي سعيد هنا الى أهمية تلك المنظومة المسماة بالمستشرقين، حيث لعبت المعرفة التي زود بها المستشرقون بريطانيا دوراً رئيسياً في مرحلة تحضير الاستعمار. ويناقش سعيد مسألة المعرفة التي تبدو له كالسلطة الفعلية. تبدو الصورة التي رسمها سعيد سوداوية بعض الشيء عن المعرفة فالعلاقة بين العلم والقوة واردة ولا جدال فيها، إلا أن العلم له وجهه الإيجابي.

أما عن الفريق الأخر، كطه حسين وغيره، فلا يعتقدون بأن للاستشراق علاقة مباشرة بالغزو وإنما كانت دوافع المستشرقين وخاصة الأدباء منهم أدبية تحاكي واقع المدارس الأدبية للقرنيين الفائتين وقد قدم الحلم الشرقي للمدرسة الرومانسية المناخ المناسب لنمو هذا التيار الأدبي. لكن على العكس من هذه الشريحة الادبية كان هناك شريحة اخرى من المستشرقين من لم يكونوا أدباء بل كانوا سياسيين و فلاسفة و علماء وغير ذلك, فما هو التيار الذي كان ينتمي له هؤلاء المستشرقين؟ يجيب على هذا التساؤل الفيومي: « □ □□□ □□□□□□ □□ □□□ □□□ □□ □□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□ □□□□□□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□ □□

□□□□□ □□□□□□□□ □□ □□□□□□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□ □□ □□□□□
□□□ □□ □□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□
□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□ □□□ □□□□□□□
□□□□□□ " □□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□□□□

تبلورت الروابط بين هذه الأقليات من جهة وأوروبا من جهة أخرى ليس في الجانب الثقافي والخدمي فحسب بل والمعلوماتي ايضاً. وقدمت هذه الشريحة من المجتمع خدمات لا تحصى ولا تعد على الصعيد المعلوماتي، فزودوا المستشرقين بمعلومات كانوا يجهلونها، وإلا فمن أين لفولني أن يلم بهذا الكم من المعلومات عن حالة سورية السياسية التي كرس لها الجزء الثالث من كتابه رحلة إلى مصر وسوريا؟ و يسرد الرحالة الفرنسي فولني في هذا الجزء سلسلة من الحروب الداخلية والنزاعات الإقليمية على الهيمنة التي تجرعتها سوريا والتي أودت بالبلد إلى تقسيم طائفي و إقليمي. وركز بوجولا على أهم النزاعات كحرب إبراهيم باشا عام ١٨٣١ في سوريا والتي اشعلت نار الفتنة بشكل مباشر أو غير مباشر لتبدأ بعدها الحروب الطائفية والمذهبية، حيث أثار وقوف المسيحيين إلى جانب القوات المصرية نقمة المسلمين والدروز على السواء مما أدى إلى حدوث بعض المناوشات بين الدروز والمسيحيين في مناطق متعددة من جبل لبنان والبقاع، وأدى ذلك إلى ثورة الدروز في عام ١٨٣٨. لكن المصريين وبمساعدة جيش من الموارنة وعلى رأسهم الأمير بشير اسكتوها.

لم تأت أحداث ١٨٦٠ إلا بعد حالة من التوتر العرقي والديني والتعبوي الذي زرعته الأيدي الخفية التي اشعلت فتيل الفتنة الطائفية. فاصطف المسلمون شيعة وسنة مع الدروز في هذه الاحداث. وجاء على إثرها إبادة للمسيحيين في دمشق والجبل. حينها توانت الفرصة التي طالما انتظرها الأوروبيون فازدادت الضغوطات على السلطان بتدخل فرنسا وبريطانيا لحماية المسيحيين. يتحدث الرحالة بوجولا في مراسلاته مع معلمه ميشو عن هذه الأحداث واصفاً اياها بالإبادة. وسارع السلطان لاستدراك الأمور إذ لم يشأ أن يدخل حرباً جديدة مع ألأوروبيين فأرسل أحد أقوى قادة جيشه واسمه فؤاد باشا مع صلاحيات غير محدودة لإعادة الاستقرار وإحقاق العدل.

كان لا بدَّ للإمبراطوريتين العظميين انجلترا وفرنسا من أن تتنافسا على الكثير من المصالح السياسية والتجارية، وأن يؤدي هذا للخلاف فيما بينهما، ولكنهما كانا شريكين في لعبة التفكيك.

أِثر الحرب العالمية الأولى تمكنت إنجلترا وفرنسا من الوصول لغايتهما و تقاسما التركة، و تقول الباحثة والمؤرخة الفرنسية جولي داندورين في حديثها عن الإدارة الفرنسية لسوريا تحت الانتداب أن فرنسا أعادت تحديد المناطق الجغرافية والإدارية التي خضعت لسلطتها : « □□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□ □□□□ □ □□□ □□ □□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□□ □□ □□□□ □ □□□□ □□ □□□□□ □.□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□ □□□□□□

الخاتمة

إن التعددية السكانية السورية حقيقة لا يختلف عليها اثنان ولهذه التعددية سلبيات وايجابيات فهذا التنوع السكاني لسوريا يعطيها لون خاص و فسيفسائية متعددة الثقافات والأفكار ولكن بهوية مشتركة و متحدة. ومن سلبياتها أن حقوق الأقليات قد تهضم في غياب المساواة و ينتج عنها مناخ من المشاحنات و النزاعات، فسوريا عاشت وتعيش هاذين الجانبين بجميع ألوانهما، فهي تفتخر بنسيجها الاجتماعي متلون الثقافات، و تعاني في نفس الوقت من نزاعات داخلية اسالت لعاب الطامعين والمتربصين بها.

استطاعت النخبة المتميزة من الرّحالة أن تقتنص فرصتها، وتستغل بعض نقاط الضعف التي نتجت عن نزاعات التعدد السكاني والطائفي، لتنقل صورة مبالغ في ألوانها، فرسم الرحالة الفرنسيون بريشهم التي صنعوها في مدارس الاستشراق، صورة تجسد هذا التعدد الطائفي بجميع مكوناته و بجميع جوانبه السلبية و الايجابية ولكنهم ركزوا على النزاعات و الأقليات المهضومة، لا سيما عندما تكون الضحية من بنو جلدتها وابناء عمومتها. تعمد الرحالة نقل هذه الصورة بهذه الألوان التي لا تعكس الواقع كما يبدو أو كما كان لهم أن ينقلوه، واستخدموا بهذه الحرب الإعلامية تلك الأسلحة التي تعلموا فنونها في تكوينهم الفكري.

إن ما تقوم به وسائل الإعلام الحديثة اليوم لا يختلف في المبدأ والوسيلة عن تلك التي قادها ودشنها اسلافهم من الرحالة، فالصورة التي تسوق اليوم عن الشعوب والثقافات والأعراق وبعض الجماعات ذات الأصول الجغرافية والقومية المختلفة والمتعددة وبعض الاتجاهات السياسية والفكرية، ما هي إلا مظهر من مظاهر الصورة النمطية السلبية. وهي بهذا تهدد بانفجار طائفي تغمره الصراعات والكراهية في المنطقة، وترسي في جوانبها حق التدخل المشروع لفك الخصام النزاع. ولكن هذا التدخل لم يلبي فحسب نداء تلك الشعارات التي حملها المفكرون بل تجاوزها ليلبي مطالب من كانوا وراء الهجمة الاعلامية و يبسط سلطته على الأرض ويستعيد ماضيه الذي انكسرت عند حدودها شوكته في السابق.

لقد تسابق البريطانيون والفرنسيون في مارثون السيادة الجغرافية في الشرق الاوسط وقد نتج عن هذا السباق اصطدام الطرفين في بعض الاقطار والتقت اهدافهم في البعض الاخر ولا يخفى على القارئ للتاريخ حجم الدور الذي لعباه كل من فرنسا وبريطانيا في القضاء على الرجل المريض (السلطان العثماني).

ولكن لا يمكن أن نلقي باللائمة على المستشرقين فقط، بل على أهل الأرض بالدرجة ألأولى, فلو استوعب مفكرو العرب مسألة الطائفية و اخمدوا نيرانها التي ما فتأت تحرق كل من عليها، لما نجعت خطة " صب الزيت على النار". ولو عدنا إلى أحداث ثورة الدروز سنة١٨٦٠ التي مثلت الذريعة الكبرى للمستعمر لدخول سوريا بصفة حامٍ للأقلية المسيحية للاحظنا أن الصورة لم تنقل بالوجه المطلوب، فالمزايدات والمبالغات ملئت الروايات، وكانت لها أثر بالغ الأهمية على ردود فعل الشريحة التي كانت تقرأ هذه الكتب، ولا يخفى علينا جميعاً أن فرنسا كانت تعيش عصر التنوير الذي أخرج عظماء الأدب الأوروبي، حيث كانت الكتب تطبع وتباع وتوزع بدعم من السلطات. وهذا حقيقة نجدها مثلا عند دو لامارتين الذي حصل على دعم من الحكومة الفرنسية لإتمام رحلته، أو هونري جيز الذي بقى في الشام كقنصل تجاري لمدة تتجاوز العشرين سنة.

إن رموز تلك الحقبة كثر ونذكر منهم ايضاً موريس بارِيس الذي دعا علنا في كتابه □□□□□ □□ □□□□

□□□□□ ، الجيش والسلطة والشعب لاسترداد الحق المسلوب والتدخل الفوري في سوريا لحماية الوجود المسيحي، وأرسل برسالة واضحة للسلطات وأصحاب الشأن يطالب فيها بإقامة جمعيات كهنة □□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□□ في سوريا إذ أن هذه الجمعية كانت قد تأسست في أوائل القرن السابع عشر استجابة لنداء القديس فانسون دي بول وتدعو إلى استمرار الدعوة التبشيرية، و أراد لها بارِيس أن تكون استعمارية. وخلاصة القول فإن الصورة التي ُنقلت عن الشرق لا تستجيب لمعايير المصداقية العلمية كما لابد لها أن تكون، بل لبت أهدافا وضعت سلفاً وتم تنفيذها على مدى طويل، و كانت تقتضي بتهيئة الجانب الفكري للحملة الاستعمارية واستطاعت تلك الكتب مجتمعةً أن تؤدي مهمة تهيئة الفكر و العواطف. فكانت تلك هي المدرسة الحقيقة لحرب الإعلام بوسائل تصاحب عصر النهضة في القرني الثامن والتاسع عشر، حيث شكل الكتاب وسيلة للحرب لا المعرفة فقط. وفي خاتمة هذا العرض، نستطيع القول أن الصورة النمطية للشعب السوري لم تكن خيالا من خيالات الأدب الأوروبي لا سيما الفرنسي، بل حقيقة ولكنها رُسمت بريشة من اختار ألوانها، وعرضت بشكلها الأخير في صالونات صانعيها كأدب وفكر جديدين.

المراجع

ملاحظة : تمت ترجمة الاستشهاديات التي اوردناها من الكتب غير العربية بمجهود شخصي

1) رحلات المستشرقين :

- De Vogüé, Eugène-Mechior, *Syrie, Palestine,* Ed. E. Plon, Nourrit, Paris, 1887
- Guys, Henri, *Un Derviche algérien en Syrie*, Ed. Just Rouvier, 1845, Paris
- Le comte d'Orléans, le comte de Paris, Louis Albert Philippe. *Damas et le Liban, Extrait du journal d'un voyage en Syrie au printemps de 1860*. Londres : édition, W. Jeffs, 1861, p. 16.
- Lamartine, Alphonse, *Souvenirs et portraits*, Paris : Hachette : Jouvet, 1897, vol.1
- Maurice Barrès, *le Cultes du Moi*, Le Jardin de Bérénice, tome 2, Ed. Plon impo, Paris ; 1948
- Maurice Barrès, *Une Enquête aux pays du Levant*, édit, Plon-Nourrit, Paris, 1923, t. 2
- Poujoulat, Baptiste, *Voyage dans l'Asie Mineur*, 2 vol, ED. Ducollet, Paris
- Volney, Constantin-François, *Voyage en Egypte et en Syrie*, tome 1, Ed. Bossonge Frères, Paris. 1822

2) المراجع النقدية :

1 المراجع العربية

أحمد درويش، □□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997

اسماعيل احمد عمايرة, □□□□ □□ □□□□□□□□□□ □ □□□□□, دار البشير عمان 1996
سليمان الحلبي, □□□□□□□□ □□□□□□□□□: □□□□□□□□ □□□□□□□□□, الدار السلفية الكويت, 1984, طبعة 2

فاروق عمر فوزي□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□، عمان، الاهلية،
محمد الفيومي, □□□□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□, دار الفكر العربي, 1993, القاهرة
محمد عبد الغني النواوي, □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□□□, الجزء الأول (مؤامرة الدويلات الطائفية), 1403

يحي مراد□ □□□□ □□□□□ □□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□، القاهرة، دار الكتب العلمية, 2004

2 المراجع الأخرى

- Andurain, Julie, *Alep ou Damas*, In La voie de l'épée, 2013 (en ligne) :
- Al-Zaum, abdulmalek, *La Part de la Syrie dans les récits de voyage*, Ed. Paf, Berlin, 2013.
- Berty, Valéry, *Littérature et Voyage*, Ed. L'Harmattan, Paris.
- Berchet J.-C., *Le voyage en Orient Anthologie des voyageurs français dans le Levant au XIXe siècle*, introduction, chronologie, notices biographiques et index de J.-C. Berchet, Paris, éd., Robert Laffont, 1985
- Bernard, Yvelise, *L'Orient du XVIe siècle*, Ed. L'Harmattan, Paris, 1988
- David Vinson, *L'Orient rêvé et l'Orient réel*, Revue d'Histoire littéraire de la France, 2004
- De Laborde, Léon, *Voyage de la Syrie*, Ed. Fimin Diderot frères, Paris, 1837, préface.
- Dussaud, René, *Histoire Et Religion Des Nosairis*, Ed. Librairie Emile Bouillon, Paris 1900
- Hamour, Nadia, *La mise en place de Mandats au Moyen-Orient* 2009 (en ligne).
- Moussa, Sarga, *Traducttor, traditore, figure du drogman dans les récits de voyage*. In. écrire le voyage, Presse la Sorbonne Nouvelle, Paris.
- Niebuhr, Carsten, *Voyage de M. Niebuhr en Arabie et en d'autres pays de l'Orient* avec *des observations de MR. Forskal*, vol. Ed. Chez les libraires Associés, Suisse, 1780
- Robert, A. Kann, *A History of the Habsburg Empire, 1526-1918,* University of California Presse, 1980
- Roger, Bigelow, *Suleiman the Magnificent*, Red Books, 2007.
- Said, Edward, *L'Orientalisme*, Ed. du Seuil, Paris, 2003.
- Taha Hussein, Moënis, Présence de *l'Islam dans la littérature romantique en France*, Ed. Dar-al-Maaref, Le Caire, 1960.